الخلافة أساس الفكر السياسي والحزبية في المجتمع الاسلامي في عصوره الأولى

موسى لقبال

عاش المسلمون حياتهم الزاهرة، الباهرة، في مدينتهم الفاضلة، أثناء حياة الرسول ﷺ. وبفضل قيادته الرشيدة، والمثالية، والعملية، وإشرافه على شؤون الدين، والدنيا، للمجتمع الإسلامي الجديد، عمّت السكينة والوقار، وساد الوئام، وامتلأت العقول، والنفوس بالرّوْح والراحة، وبالطاعة والاستقامة.

فلما اختار الله الرسول لجواره في الملأ الأعلى، كان ذلك هو الحدث الأكبر في حياة المجتمع الجديد، الذي نتج عنه الفراغ السياسي، والروحي الذي أدّى الى شيوع القلق، والاضطراب، والفرقة، خاصة وأنه ﷺ لم يرد أن يحدّد طريقة معينة، يسلكها المجتمع الإسلامي في بناء أسس الحكم الجديد، بعد وفاته، اللهم الّا ما بثه في أحاديثه النبوية ، تربية لأصحابه، على سلوك النهج القويم، والتمسك بدستور الإسلام: القرآن الكريم.

وكان الرسول ﷺ بذلك دافعا لأصحابه، على مزيد من الاعتماد على النفس، والاجتهاد؛ لاختيار أنسب الطرق، والأشكال في موضوع الحكم، وتصريف شؤون الدين والدنيا.

اذ لو عيّن ﷺ نمطا معينا، لأصبح ذلك سنّة واجبة الاتباع، مهما تغيرت الظروف والأحوال. وفي ذلك شيء من التحجر والجمود، يأباها رسول الإسلام.

ومعنى هذا ان الرسول ﷺ لم يمنعه أي مانع، مثل المرض، أو ضيق الوقت، من تحديد شكل الحكم بعده لمسيرة المجتمع الإسلامي.

فالقرآن الكريم، وان لم يتضمن صراحة شكلا معينا، من أشكال الحكم المألوفة، سواء في ماضي العرب في جاهليتهم، أو في ماضي الشعوب المجاورة لهم، فانه حفل في أكثر من مكان بالآيات القرآنية التي تحث على الأخذ، بالشورى، وعلى تطبيق مبادئ العدل والمساواة والأخوة، ونبذ الظلم والجور في الأحكام: وهي المبادئ الأساسية، في أي شكل، من أشكال الحكم السليم قديما وحديثا.

وقد تحقق فعلا ما قصده الرسول ﷺ عندما ترك أمر الحكم بعده للاجتهاد؛ اذ بادر الذين تربوا في مدرسة الإسلام الأولى، من الصحابة، مهاجرين وأنصار، لمعالجة هذا الأمر، في أكبر تجمع إسلامي دستوري، وتأسيسي، في سقيفة بني ساعدة، بالمدينة المنورة؛ ولئن ساد الاجتماع نقاش صريح وحرّ وحاد، فإنه كان هادفا الى خير الإسلام، وخير المجتمع الإسلامي الجديد.

ولذلك انتهى هذا التجمع، أو هذا المؤتمر التاريخي، الى حل جذري لمشكلة الفراغ السياسي الذي أصبح فيه المجتمع الإسلامي بعد وفاة الرسول ﷺ، وذلك بالموافقة على شكل من أشكال الحكم هو الخلافة؛ أو الأمامة وهي الرئاسة العليا عند المسلمين. تم ذلك بطريق البيعة وهي الانتخاب.

وهكذا اهتدى المسلمون إلى نظام عربي وإسلامي عالمي، يهتم بشؤون الدين والدنيا عندهم؛ فكان ذلك هو النجاح المبدئي العظيم. ومن يومئذ بقي هذا النظام أساسا رئيسيا، في حياة المسلمين، لا يتصورون حياة مدنية أو دينية سليمة، وكاملة بغيره، وحتى في عهود ضعف هذا النظام وتحوله إلى نظام وراثي، بقي محترما لدى عامة المسلمين، ولذلك كافحوا لابقائه، أو لتقويمه، كما كافحوا من أجل احيائه في القاهرة، بعد سقوطه في بغداد 656 هـ / 1259 م. على أيدي المغول.

وعندما سقط نظام المماليك الجراكسة في مصر والشام 1517 م، على يد العثمانيين، استمر نظام الخلافة في اسطنبول حتى 1924 م. ليرضي عواطف المسلمين، وليتحصنوا به، ضد عوامل الهدم والدمار التي تسبب فيها المغول والصليبيون: القدماء والمحدثون.

ومن الطبيعي بالنسبة لنظام عالمي كالخلافة، له قوة، وبريق وهيبة أن يتطلع لنيل شرفه، الكثير من الأفراد، والأسر، والجماعات الإسلامية، منذ قيامه والى وقت ليس ببعيد.

ومن المسلم به في مثل هذه الحالات أن يقع الخلاف، والنضال بالكلام، أو بالسنان أيضا. وهذا ما يدعو الى بحث موضوع:

- الأحقية بالخلافة.

الآن وقد اتضح كيف ان اخلاص المهاجرين والأنصار، للاسلام قادهم ببساطة الى ارساء نظام الخلافة العتيد، الذي جمع شمل المسلمين وحفظ استمرارية المجتمع، والدولة، في إطار سليم، حتى عندما تحول هذا النظام الإسلامي، إلى ما يشبه الملك الوراثي منذ بداية العصر الأموي 40 هـ / 660 م.

أما موضوع الأحقية بالخلافة، أي ادعاء الأسبقية، أو أولوية فريق من المسلمين، على فريق آخر، في منصب الخلافة، فهو أخطر ما واجهه المسلمون، وتشعبت فيه آراؤهم، واشتد حوله الخلاف بينهم، فأصبحوا فرقا، وأشتاتا، وأحزابا. ومن هنا ينبغي أن يعرف شبابنا مسؤولية نظام الخلافة، في نشأة ظاهرة الحزبية السياسية والمذهبية في الإسلام.

نواة الحزبية في الإسلام - الفرق:

فنجاح مؤتمر سقيفة بني ساعدة وقيام خلافة الراشدين، باتفاق جمهور المهاجرين والأنصار، على مبايعة أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، جعل فريقا من المسلمين، وهم الذين عرفوا فيما بعد بأهل السنة والجماعة، يرون أن الخلافة ميزة،

تختص بها قبيلة قريش، بسائر فروعها، ومنها السابقون الأولون إلى الإسلام من المهاجرين.

وقد استند هذا الفريق، على ما جرى من نقاش، أثناء مؤتمر السقيفة كما احتج لتأييد رأيه، بالحديث الشريف «الخلافة في قريش».

وعلى هذا فخلافة الأمويين والعباسيين خلافة شرعية واجبة الطاعة، واعتبر هذا الرأي عند بقية المسلمين، نوعا من الاحتكار، أو نوعا من الميراث، تدعيه قريش، بسبب انتماء الرسول ﷺ إليها.

وفي الطرف الآخر، وبعد أن جرى حادث التحكيم بين علي الخليفة الراشد الشرعي، ومعاوية والي الشام، وأسفر عن هزيمة سياسية لعلي. ونجاح باهر لمعاوية قاده الى الخلافة، انقسم أنصار علي بن أبي طالب، إلى فريقين:

أ ـ فريق أنكر التحكيم واحتج على الخليفة الشرعي (علي)، وفارق معسكره، وقاتله دون هوادة، وعمل على التخلص منه بالقتال نهائيا؛ وعندما نجح في ذلك، انتهى ـ بقتل علي ـ عصر الخلفاء الراشدين، وبدأ عصر الأمويين الذي طوّر الخلافة إلى نظام وراثي كما أسلفنا.

فكان كل ما جرى دافعا، لهذا الفريق، على التطرف، في نظرته حول مواصفات خليفة المسلمين.

بحيث رأى أن الخلافة، حق مشاع، ومشترك بين جميع المسلمين العدول، دون اعتبار، لجنسهم، أو لون بشرتهم. ويدخل في عموم ذلك. العرب وغيرهم. وقريش مثلها. مثل بقية القبائل العربية الأخرى. وآل البيت. وهم آل الرسول ﷺ مثل غيرهم أيضا، في هذا الموضوع. فالمساواة واجبة بين الجميع.

وهذا الرأي يعتبر بذرة الجمهورية أو الجماهيرية في تاريخ الفكر السياسي الإسلامي؛ وقد تبنى هذا الرأي. وتمسك به تمسكاً شديدا. المحكمة. أو الشراة. وهم الذين سماهم خصومهم بلقب: الخوارج. لخروجهم ضد علي. أما هم فيسمون أنفسهم الشراة، أي الذين باعوا أنفسهم في سبيل الله.

وقد تعزز جانب الشراة وقوي عددهم، وكثرت جماهيرهم، بانضمام فريق من المسلمين، غير العرب اليهم، وهم عنصر الموالي، اعجابا بفكرة المساواة التي نادوا بها، والتي تتيح لبعض رجالهم الظفر بلقب الخلافة الرفيع الشأن.

ب ـ أما الفريق الثاني من انصار علي، فقد ثبتوا على الولاء له، وعلى نصرته، أثناء حياته، وبعد قتله ـ رضي الله عنه ـ التفوا حول أبنائه: الحسن والحسين، ومحمد بن الحنفية، وحول أحفاده، من بعدهم ـ رضي الله عنهم.

ـ وخلاصة رأيهم، أن الخلافة بعد الرسول ﷺ هي حق لعلي بن أبي طالب، (وأبنائه من بعده) دون سواهم، وهذا بمقتضى تعيين الرسول ﷺ لعلي والنص على ولايته للمسلمين، في مكان يسمى: غدير خم (بين مكة والمدينة) في السنة العاشرة من الهجرة، أثناء عودة الرسول ﷺ من الحج الأكبر، أو حجة الوداع (الأخيرة).

ففي هذا المكان، وأمام جمهور المسلمين، قال الرسول يخاطبهم: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: «بلى يا رسول الله!»، قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه! اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره وأخذل من خذله». ومن يومئذ صار علي ولي المسلمين، وولي الله، وهنأه كبار الصحابة بهذا الشرف العظيم.

فبمقتضى هذا الحديث الذي يتمسك بصحته هذا الفريق، يكون الرسول ﷺ قد عيّن عليا بعده، وأوصى له بالخلافة، يرثها عنه، كما ورث عنه العلم والحكمة؛ ومن علي تنتقل الى الحسن والحسين، ثم إلى محمد بن الحنفية بعدهما؛ أي تبقى في بيت علي دون سواه.

وهذا الاتجاه يشير الى بذرة الملكية الوراثية التي تستمد وجودها، أو أحقيتها من فكرة دينية مقدسة.

وهذا الفريق من أنصار علي، هم الذين عرفوا فيما بعد باسم الشيعة (العلويين) ويضمون في صفوفهم مجموعات عربية، وأخرى من الموالي، فمن هؤلاء الشيعة؟ وما هي طوائفهم؟ وأية أحداث مهدت لبروزهم؟

فرقة الشيعة ـ طوائفها:

في البداية نلاحظ أن حب آل البيت والعطف عليهم، هو المسؤول بدرجة كبيرة عن ظهور الآراء الشيعية المختلفة، وأيضا عن نشأة هذه الفرقة الإسلامية الكبيرة.

ولقد زادت من قوة شعور الحب، والالتفاف، احداث جسام في مقدمتها:

أ ـ انصراف الناس يوم مؤتمر السقيفة عن علي، وبيعتهم لأبي بكر بالخلافة.

ب ـ عدم طواعية بني أمية وأنصارهم، لعلي أثناء خلافته، التي سادها اضطراب وختمت بمصرعه، على يد عبد الرحمن بن ملجم المرادي (من الشراة ـ الخوارج).

جـ ـ ولم يستقم الامر بعده لابنه الحسن، بسبب تخاذل الناس، عن نصرته، ولم يلبث أن توفي في ظروف غامضة.

د ـ أما المأساة الكبرى فتمثلت في قتل الحسين أخيه بسهل كربلاء سنة 61 هـ / 680 م على يد عبد الله بن زياد. فأصبح يعرف بالشهيد، أو سيد الشهداء.

أن مأساة كربلاء بالخصوص، أدمت قلوب الشيعة، وقلوب المسلمين جميعا. وتركت حزنا عميقا، بقي يتجدد عند الشيعة، كلما مرت الذكرى يوم عاشوراء (10 محرم) من كل سنة هجرية.

وهذه الأحداث وغيرها، هي التي كونت فرقة الشيعة، وأعطتها قوة وصلابة وقدرة على النضال السياسي والفكري ضد الأمويين والعباسيين أيضا.

وكان أول ردود الفعل بعد حادثة كربلاء، ظهور أقدم فرقة شيعية، تدعو الى الالتفاف حول: محمد بن الحنفية ـ الابن الثالث لعلي بن أبي طالب من غير فاطمة ـ بدعوى أنه ورث العلم السري الذي أوصى به أبوه ـ وعرفت الفرقة، باسم الكيسانية ـ وباسم هذه الفرقة ناضل كثير من المغامرين، ومن المحبين لآل البيت أيضا ضد بني أمية، وقادتهم، فأدركوا شأوا بعيدا، ومن أشهرهم: المختار بن أبي عبيد الثقفي.

وفي فترة تالية ظهرت الى الوجود:

فرقة الامامية، وفرقة الزيدية، نتيجة لخلاف بين ابني علي زين العابدين بن الحسين؛ وهما: محمد الباقر، وأخوه زيد، حول الموقف من خلافة أبي بكر وعمر؛ فالأمامية رفضوها، فسموا رافضة؛ والزيدية اعترفوا بها.

وبينما حمل الزيدية (مذهبهم الآن في اليمن) راية الجهاد، ضد بني أمية، اتجه الامامية نحو التعليم، والدعوة، والبحث العلمي، فنتج عن نشاطهم فقه الشيعة، وأصول عقائدها، وفلسفتها السياسية؛ اتضح ذلك عندما آل أمر الأمامية الى سادس الأئمة بعد علي، وهو جعفر الصادق بن محمد الباقر؛ عاش هذا الامام، أحداثا جساما: فرأى فشل بني عمه الحَسنيين، بقيادة محمد النفس الزكية، في النيل من سلطة بين العباس، في عهد أبي جعفر المنصور؛ وكيف نكل بهم، ونفوا من الحجاز إلى بغداد.

ولئن أظهر الصادق شفقته، وعطفه على المنكوبين، من آله، فقد بقي بعيدا عن الشبهة، وعن أي نشاط سياسي، قد يوقع به، وبآل بيته الحسنيين وقد سلك سبيل الحذر، والحيطة، والعمل، في سرية تامة، وهو ما يعرف بالتقية. وينسب اليه قوله: «التقية ديني ودين آبائي، من لا تقية له لا دين له». واليه ينسب الفقه الجعفري أو المذهب الجعفري في بلاد الشام.

كما نسب اليه تنظيم الدعوة لآل البيت وارسال الدعاة، الى مختلف الجهات والأقطار في المشرق وفي المغرب الاسلاميين.

وكان هذا الامام قدوة لجميع الشيعة، وعنوانا على مجدهم، ورمزا لوحدتهم المتينة، وحافظا لتراثهم. فلما توفي سنة 148 هـ / 765 م تصدع بنيان الشيعة الأمامية، وظهرت الى الوجود السياسي، والعقائدي: فرقتان:

أ ـ فرقة الأمامية الاثني عشرية «الموسوية» (موسى)

ب ـ وفرقة الاسماعيلية (اسماعيل).

والسبب في حدوث هذا الشقاق في بيت جعفر الصادق، أي بين ولديه: الأكبر اسماعيل، والأصغر موسى الكاظم (تنسب اليه الكاظمية: حي في بغداد): هو الأحقية بالأمامة بعده.

فادّعى فريق من الشيعة أن جعفرا الصادق نص على إمامة ابنه الأكبر اسماعيل، فهو الأحق بمقتضى تقاليد الشيعة، ، وهؤلاء هم الاسماعيلية. وتنتقل منه الى أبنائه وأحفاده، بمقتضى النص كذلك.

اما الفريق الآخر فرأى أن جعفرا غير النص في أخريات حياته، وألغى اسماعيل، وعيّن موسى الكاظم، للامامة بعده، والسبب هو ما بلغه عن اسماعيل، من طيش، وانحراف خلقي. وهؤلاء هم الموسوية، ولانهم قالوا: ان الامامة تنتقل من موسى الى أبنائه، وأحفاده، حتى الثاني عشر منهم، وهو محمد بن الحسن العسكري الذي اختفى في سرداب في مدينة سامراء ـ العراقية سنة 263 هـ / 876 م، سموا بالامامية الاثني عشرية. وكان من هؤلاء علماء، وفضلاء، خدموا قضية آل البيت خدمة معتبرة، حتى بلغ الأمر بالخليفة المأمون العباسي، إلى أن عزم على رد الخلافة الى أحدهم وهو (علي الرضا)، فبايعه، وحمل الناس على بيعته، لكن الأمر لم يتم، بسبب ثورة العباسيين ضد المأمون الذي تراجع أخيرا.

وفي أحضان هؤلاء الأئمة تربى كثيرا من النبهاء والعلماء والدعاة أمثال الصنعاني، ومنصور اليمن وأبي سفيان والحلواني. ان هؤلاء وغيرهم كانوا اثني عشرية، ثم تحولوا الى الفريق النشيط وهم الاسماعيلية، وقد نذروا أنفسهم لخدمة قضية آل البيت العلويين بغية انصافهم من بني عمومتهم العباسيين المغتصبين لتراث الرسول ﷺ وللقب إمرة المؤمنين.

والصفوة من هذا العرض الموجز:

حقيقة مركزية هي: مسؤولية نظام الخلافة عن ميلاد **النظرية السياسية الاسلامية**.

ـ وفي المؤتمر **التأسيسي في السقيفة** ظهرت وتنامت **بذرة الأغلبية التي** تبلورت في جماعة **أهل السنة**.

ـ كما ظهرت بجانبها بذرة **الأقلية الرافضة**. **من أنصار علي التاريخيين وهم الشيعة** الذين تأثر تماسكهم بفعل تطور الأحداث. خاصة **حادثة التحكيم** التي نتج

عنها ميلاد فريق **سياسي مذهبي جديد** ينحو منحى **جمهوريا أو جماهيريا** في تاريخ الفكر السياسي في الاسلام وهم **المحكمة أو الشراة**.

بعض المصادر والمراجع

- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ـ جـ 3 وما بعده.
- ابن أيبك : الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية.
- جمال سرور : الدولة الفاطمية.
- حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام السياسي جـ 1 ـ 2.
- حسن ابراهيم ـ: تاريخ الدولة الفاطمية.
- ابن خلدون : المقدمة، العبر ج 4 ط بيروت.
- ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ 1.
- الشهرستاني : الملل والنحل
- ابن أبي الضياف : إلحاف أهل الزمان. ج 1 ط تونس.
- الطبري : تاريخ الأمم والملوك جـ 7، 8.
- ابن طولون : الشذرات الذهبية في تراجم الأئمة الاثني عشرية.
- ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ط بيروت.
- ابن عذاري : البيان المغرب ج 1 ط المناهل بيروت.
- كامل حسين : طائفة الاسماعيلية.
- » » في أدب مصر الفاطمية.
- الكرماني : المصابيح في اثبات الأمامة ط بيروت.

ـ ماجد عبد المنعم : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر. ط القاهرة دار المعارف.
ـ ماجد عبد المنعم : تاريخ الدولة العربية.
ـ المقريزي : اتعاظ الحنفا. ط الشبال 1967 م القاهرة.
ـ ابن منظور: لسان العرب ج 10.
ـ النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام. ط الاسكندرية.
ـ النعمان : المجالس والمسايرات ط تونس.
ـ النعمان : افتتاح الدعوة، ط بيروت.
ـ يحي هويدي : تاريخ فلسفة الشمال الإفريقي ج 1.
ـ دائرة المعارف الإسلامية : مقالات شيعة، داعي، جعفر الصادق، على ـ أبو تراب ـ اسماعيلية ـ اثناعشرية.

هذا الشيخ المجهول
(الشيخ أبو زكرياء يحي العيدلي)
881 هـ / 1476 م

علي أمقران السحنوني

على شاطئ وادي بوسلام في منطقة بني عيدل بين جبلي: بني عيدل وبني عباس بدائرة أقبو ـ ولاية بجاية، حمام معدني مقصود يسمى حمام سيدي يحي العيدلي، وعلى بعد عدة مئات من الأمتار وفي السفوح الوسطى لجبل بني عيدل توجد مغارة تشتهر بأنها كانت خلوة لسيدي يحي، وهي مغارة صغيرة، ذات مدخل صغير، وممر ضيق متعرج يفضي الى مكان واسع قليلا في الداخل يمكن أن يستوعب خمسة أشخاص.

ويقال: ان هذا المَمَرْ له خاصية عجيبة، وهي أن الذي يدخل الى المغارة وكان صالحا، وذَا نِيَّةٍ حسنة سليمة دخلها وخرج منها دون أي حادث، وإلا أطبق عليه جانبا الممر وضغطا عليه، والحقيقة أن الممر متعرج فالذي يعرف كيف ينساب فيه دخل وخرج بدون أي حادث، فإن لم يعرف تعرض لبعض المضايقات.

وفي السفح الاخر من ذلك الجبل، وفي منبسط من الأرض توجد قرية «تامقره» أين يوجد معهد سيدي يحي العيدلي (زاوية)، أو معهد «تامقره»، في منطقة بني عيدل وقد عرف هذا المعهد أو هذه الزاوية منذ القرن التاسع الهجري، أي في الوقت الذي اشتهر فيه مؤسسه سيدي يحي العيدلي ـ إن لم يكن قبل ـ وقدم